مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 10 العدد 01 السنة 2009 ص ص 61-99

الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في عهد العثماني

أ.ة/ ليلى غويني [1]
[1] جامعة الجزائر 2

مقدمة:

تعتبر الرّحلة الحجازية عونا كبيرا للمؤرخ والجغرافي ، باعتبار أنها من أهم المصادر المحلية بتأكيدها الوقائع عن طريق المشاهدة والمعاينة، ولم يخل تاريخ المغرب الإسلامي عبر عصوره من مؤلفي الرحلات الحجازية منذ ظهورها، وقد أنتج هذا الفضاء الجغرافي رصيدا كبيرا أسهم في الحصول على تراث فريد من نوعه، ذو قيمة هامة، يعتبر منبعا لكل راغب في البحث في شتى الميادين.

وقد تبين من خلال تراث الرحلة الحجازية أن كتابها كانوا يختارون تدوينها في شكل نصوص نثرية، أو كتابتها على شكل شعر منظوم، أما عن عددها في الجزائر في هذا العهد، فيمكن القول أنها أقل بكثير مقارنة بالمغرب الأقصى، وقد يعود سبب ذلك إلى أن رحلات عديدة تكون قد ضاعت أو سُرقت أثناء الصدمة الاستعمارية الفرنسية.

وفي هذه الدراسة سنعنى بإلقاء الضوء على أهم الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني ،نخصّ مؤلفيها بترجمة ونتطرق إلى الدراسة الوصفية لرحلاتهم.

1-الرحالة أحمد المقري (986-1041هـ/1578-1632م):

يُعدّ المقري من أهم الشخصيات العلمية للقرن الحادي عشر هجري/السابع عشر ميلادي، فاشتهر ولمع نجمه في سماء المغرب والمشرق، وشهد له معاصروهُ بالإمامة والفضل في الفقه وأصوله، وفي علم القرآن والحديث وعلوم اللغة. واسمه الكامل شهاب الدين العباس أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمان بن أبي العيش المقّري التلمساني، ولد عام 986هـ الموافق لـ1558م بتلمسان، حيث استقرت أسرته الأولى بعد أن انتقلت من بلدة مقرة[1]، وتولى أفرادها وظيفة القضاء والإفتاء والخطابة[2].

وذكر المقري في كتابه نفح الطيب ذلك بقوله: "...**وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمان بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين... وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي...**"[3].

* **نشأته العلمية:** عُرف المقري منذ نعومة أظفاره بحب العلم والأدب، فحفظ القرآن الكريم في صغره وعكف على دراسة العلوم العربية والحديث. كان أول معلم له عمه الشيخ أبو عثمان سعيد

المقري[4]، ومن جملة ما قرأ عليه، صحيح البخاري سبع مرات، وكتب الحديث والسنة المشهورة.

ولما اشتد عوده تاقت نفسه لزيارة العواصم العلمية، فتوجه إلى مدينة فاس وهو ابن الثالثة والعشرين، وكان ذلك سنة 1009هـ/1600م[5]، ومتّن صلته بالشيوخ والعلماء الذين خالطهم وحضر مجالسهم، ويبدو أنه كان له نشاط واسع سمح له بأن يُعرف ويشتهر في الأوساط العلمية، فقد اتصل به الفقيه إبراهيم بن محمد الآسي[6] وأُعجب بشخصيته، فاصطحبه إلى مراكش وهناك تعرف على العالم المشهور أحمد بابا التنبكتي[7]، وعلى عدد لا بأس به من علماء مراكش الذين سيأتي ذكرهم.

بعدها راوده الحنين ليزور مسقط رأسه تلمسان، فكان ذلك عام (1011هـ/1602م)، وفيها عزم على إتمام كتابه "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس" الذي كان ينوي تقديمه لأحمد المنصور[8]، غير أن هذا الأخير توفي قبل عودة المقري إلى فاس سنة (1012هـ/1603م)[9].

استقر المقري في فاس فترة طويلة دامت حوالي خمس عشرة سنة، استكمل فيها حاجته العلمية وتولى فيها الإمامة والفتوى والخطابة، ووظائف دينية متعددة في جامعها "جامع القرويين"[10]، فعلا شأنه وذاعت سمعته في كل المغرب، ومدحه عدد كبير من علمائه، وقد ارتقى إلى

منصب الإفتاء بفاس بعد وفاة شيخه محمد الهواري الذي كان يتولى ذلك المنصب سنة (1022هـ/ 1613م)[11].

كان المغرب الأقصى يعيش في هذه الفترة اضطرابات سياسية إثر وفاة أحمد المنصور وتنازع أبنائه الثلاثة على العرش وهم: أبو عبد الله محمد الشيخ المأمون، وأبو فارس عبد الله الواثق، وزيدان الناصر، واستطاع هذا الأخير أن يستأثر بحكم فاس وسائر بلاد المغرب، خصوصا بعدما ساءت سمعة أخيه المأمون[12]، وقد عبر المقري عن فرحته بامتلاك زيدان الناصر حكم فاس بقصيدة نقتطف منها ما يلي:

ناصر الدين مالك جاء التاريخ ملكه ساعدته المطالب جهد زيدان غالب[13]

غير أن مكوث المقري في فاس لم يدم طويلا، ففي خضمّ الصراع القائم بين الإخوة على السلطة، وانتقال المأمون إلى العرائش ومنها إلى القصر الكبير، اتخذ هذا الأخير قرار تسليم العرائش للإسبان مقابل إعانتهم له لاسترجاع الحكم، وكان يسعى للحصول على فتوى تُجيز له ذلك، فانقسم الفقهاء بين مبيح له خوفا منه، وبين محرّم لذلك مستنداً إلى أحكام شرعية واختار المقري الاختفاء عن الأنظار حتى لا يجبر على الفتوى، وقدرت العامة والخاصة في مدينة فاس هذا الموقف واعتبروه تصرفا شرعيا[14].

غير أن أعداءه اتهموه بالميل إلى قبيلة الشراقية التي تعود أصولها إلى منطقة تلمسان، والتي كانت تعادي السلطان محمد الشيخ السعدي، وفي الحقيقة لم يسلّط المقري الضوء على الأسباب الحقيقية لمغادرته

لبلاد المغرب، بل أشار إليها ولم يشرحها، حيث يقول في ذلك الشأن: "..**لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب، أورد، ولا محيد عما شاءه سواه كره ذلك المرء أورد، برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طارقي وبلادي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع آمنة نقصا، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العبث في كامل رونقه من الزحاف إضمارا وقطفا ووقصا..**" [15].

ومهما كان الأمر، فإن الثابت أنه غادر مدينة فاس في أواخر سنة (1027هـ/1617م) تاركا وراءه زوجته وابنته وخزانة كتبه، متوجها إلى الحجاز حلمه الدائم، لأداء فريضة الحج[16]، وهو يذكر ذلك بقوله: "...**ثم ارتحلت بنيّة الحجاز وجعلت إلى الحقيقة المجاز...**"[17]، فركب من ميناء تطوان السفينة التي مرّت به على مدينة الجزائر، ثم تونس وسوسة، إلى أن بلغ ميناء الإسكندرية بعد معاناة شديدة، وخوف من مخاطر القراصنة المسيحيين، خاصة فرسان مالطة.وقد عبّر المقري عن فرحته الشديدة وارتياحه عند بلوغه ميناء الإسكندرية، فكتب عن ذلك قائلا: "...**فرأينا البر وكأننا لم نره، وشفيت به أعيننا من المر وحصل بعد شدة الفرح، وشممنا من السلامة أطيب الأرج، فيالها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب...فشفينا لرؤيتها من الأوجاع...**"[18].

وبعدها انتقل إلى القاهرة وأقام بها حوالي سنة، تعرف من خلالها على نشاط الحركة العلمية والفكرية بها، واحتك بشيوخ وعلماء الأزهر، ولما جاء موسم الحج، توجه إلى الحجاز وأدى فريضة الحج[19]، ثم عاد إلى

مصر في نفس السنة (1029هـ/1619م) وبقي عدة أشهر، ثم سافر إلى القدس لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، حيث قضى أياما ممتعة زار فيها المعالم الدينية وقبر الخليل إبراهيم عليه السلام[20].

ثمّ رجع أحمد المقري إلى القاهرة وتزوج من عائلة ثرية ومتدينة تدعى عائلة السادة الوفائية، واشتغل مدرّسا برواق المغاربة بالأزهر[21]، وبالرغم من استقراره بها إلا أنه كان يعاني من مرارة الغربة ولم يشعر بالسعادة، وقد عبر عن ذلك في عدة محطات حيث يقول:

إِلَى مَتَى هَذَا الجَوَى والوُلُوع * وكَمْ أُوَارِي كَامِنًا فِي الضُّلُوعْ
...وصبر الصب مثنى الضنى فرد غريبا ماله من جموعْ
لَهُ أَشْكُو لاَ إلى غَيْرِهِ سُبْحَانَه * شَجْوًا أَفَاضَ الدُّمُوعْ
فَيَا عَذُولِي لاَ تَلُمْ إِنَّهُ يَكْفِيكَ * مَا قَدْ حَلَّ بِي مِنْ صُدُوعْ[22]

وقد خفّف عن نفسه بالتفرغ للكتابة والتأليف وكثرة السفر، فحج خمس مرات في الفترة ما بين 1028 و1036هـ/1618 و1626م، وأقام بالمدينة المنورة التي زارها سبع مرات وأملى الحديث بمسجدها، وتعرف على عدد كبير من علمائها فأجازهم وأجازوه[23]، وقام في عام 1037هـ/1627م بزيارة بيت المقدس ثلاث مرات، أما دمشق فقد دخلها مرتين، الأولى بقي فيها حوالي أربعين يوما حيث تعرف على المدينة وأحوالها، وقد أعجب بها كثيرا وشبهها بالجزائر لكثرة الخضرة والحدائق بها، وفيها باشر تدريس "صحيح البخاري" بالجامع الأموي، واستحسنته العامة فتكاثروا حوله.[24]

وكان يوم ختمه محتشدا بالطلاب وأعيان علماء دمشق، حتى تمّ نقل حلقة الدرس إلى وسط الصحن، وأتي له بكرسي الوعظ، ولقد وصف صاحب خلاصة الأثر هذا المشهد بقوله: "...**ونزل عن الكرسي، فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء سابع عشرة رمضان سنة سبع وثلاثين وألف، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس...**" [25].

عاود زيارة دمشق سنة (1040هـ/1630م) التي وجد فيها راحة النفس وتعلّق بأهلها ومدحهم بأجمل القصائد، ولم يغادرها المقري حتى قطع على نفسه عهدا بكتابة مؤلّفه "نفح الطيب" نزولا عند رغبة صديقه ومُضيفه أحمد شاهين[26].

ولقد وفى المقّري بعهده، وأتم تأليف الكتاب في ظروف قاسية، تمثلت في فقدان ابنته وطلاق زوجته التي لم يشعر معها بالسعادة، كما تدهورت صحته، وعاش منعزلا وحيدا إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في جمادى الثاني لسنة (1041هـ/1632م)، ودفن في مقبرة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر[27].

خلّف المقري ثروة هائلة من المؤلفات في شتى فنون الأدب والفقه والتاريخ والعقائد، وأهم أعماله التي تم طبعها -لحسن الحظ-:
- روضة الآس العاطرة الأنفاس.
- أزهار الرياض في أخبار عياض (من خمسة أجزاء)[28].

- فتح المتعال في وصف النعال" (وصف نعال النبي عليه الصلاة والسلام)[29].
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب[30].
- رحلة المقري إلى المغرب والمشرق.

في حين بقيت أغلب أعماله في حكم المخطوط أو المفقود.

فمن بين تآليف المقري التي لا تزال مخطوطة نذكر[31]:

- الدُّر الأمين في أسماء الأمين.
- أجوبة في اجتناب الدخان.
- إتحاف المغرم المغري في شرح السنوسية (الصغرى في التوحيد).
- نيل المرام المغتبط لطلب المخمس الخالي الوسط، (وهو في علم الحروف).
- البدأة والنشأة، (ديوان جمع فيه مختارات شعرية).
- ديوان المقري، أغلبه في المديح النبوي وفي الشوق والحنين (موزعة على العديد من المخطوطات).

أما تآليفه التي تعتبر في حكم المفقود فمنها[32]:

- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.
- شرح قصيدة سبحان من قسم الحظوظ.
- روضة التعليم، في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم.
- قصف المهتصر، من أفنان المختصر، وهو شرح لمختصر الخليل.
- الغث والسمين والرث والثمين.

***_التعريف بكتاب الرّحلة:**

يقع المخطوط في نسخة واحدة متواجدة بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 3191. عنوان الرحلة مسجل ضمن قائمة المخطوطات التي وضعها جورج ديلفان (G.DELPHIN)[33]، وتبدأ الورقة الأولى بـ: "وكتب لي بعض علماء مصر باللغز المسطور بمحموله وأجبت عنه بما يليه والعذرين في الاختصار وعلى الله قصد السبيل..." وتنتهي الرحلة بالجملة التالية: "...ونص العنوان الشيخ العلامة الإمام أكبر الفهامة الهمام صدر العلماء الأعلام كمال مشايخ الإسلام مولانا الشيخ أحمد المقري أدام الله إجلاله وزاد إقباله وبلغه آماله". وقد آلت هذه النسخة عن طريق حفيدة المستشرق الفرنسي "ج.دلفين" عام 1993م ضمن مجموعة من المخطوطات التي أهدتها إلى السفارة الجزائرية بفرنسا، وتم إيداعها بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

ويضم مخطوط الرحلة 66 ورقة (ما يعادل 131 صفحة)، أما قياس الورقة فيبلغ 222مم x 155 مم، ويتراوح عدد الأسطر في الورقة الواحدة بين 6 أسطر إلى 20 سطراً، ويصل إلى 38 سطرا في بعض الصفحات.

وكتب المخطوط بالخط النسخي المغربي بمداد أحمر وأسود، إلا أن هناك صفحات مكتوبة بخط مغاير، وهو الخط المشرقي الجيد، والذي ورد في الصفحات التالية:

الصفحات التي ورد فيها الخط المشرقي	
رقم الورقة	رقم الصفحة
الأولى	الثانية
الثانية	الثالثة
الخمسون	الخمسون
الستون	الواحدة والستون
مئة وواحد	مئة واثنان
مئة واثنان	مئة وثلاثة

نسخة المخطوط مبتورة النهاية والبداية، غير مجلدة، تظهر بها آثار الرطوبة والزمن، حيث يتعذر قراءة بعض الصفحات، زد على ذلك وجود عدة صفحات بيضاء: مثل الورقة 48. ويغلب الظن أن مخطوط الرحلة عبارة عن مسودة الكاتب، لاحتوائها على تشطيبات وتصحيحات على هوامش عدة صفحات.

قد يتعذر على الباحث أن يكشف منهج المؤلف خصوصا وأنه لم يتبع خط سير الرحلة الحجازية بشكل واضح، ولم يعتمد على ترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا، لكن بعد قراءات متكررة يتضح أن الكتاب يدخل ضمن كتب أدب الرحلة دون أي شك، فقد تطرق المؤلف إلى الحديث عن ملخص لقاءاته ونشاطه العلمي في رحلاته للمغرب والمشرق، ويمكن تقسيم الرحلة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: والتي تضمنت:

أ- نشاط المقري الفكري في المغرب الأقصى أثناء تواجده فيه.

ب- نزوله بمدن الجزائر ثم تونس وسوسة ولقاءه بعلمائها.

المرحلة الثانية: ضمّت هذه المرحلة:

نشاطه الفكري والعلمي في بلاد المشرق: مصر، وبلاد الحجاز، مكة، المدينة المنورة، دمشق، القدس.

و تجدر الإشارة إلى أن المؤلف لم يرتب الرحلة حسب التقسيم السالف الذكر، وإنما يوحي بذلك مضمونها.

و مما امتازت به الرحلة هو إفادتها بمجموعة من الإجازات النظمية والنثرية، وهي حوالي عشرين إجازة تمت بين المؤلف والعلماء عصره، كما احتوات على عدد لا بأس به من الرسائل الإخوانية والقصائد الأدبية، فساهمت بذلك في التعريف بأعلام الفكر، ولعلّ هذا ما جعل الرحلة تمتاز بصبغة علمية، فهي تقدم صورة عن مختلف مظاهر النشاط الثقافي لكل بلدان المغرب والمشرق تقريبا.

والملاحظ أنه قد تم تحقيق هذه الرحلة من طرف الدكتور محمد بن معمر سنة 2004م، معتمدا على النسخة الوحيدة الموجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية.

-2) الرحالة الحسين الورثيلاني (1123هـ/1193هـ-1779/1713م):

هو الحسين بن السعيد الورثيلاني، ولد عام 1125هـ الموافق لـ 1713م في بني ورثيلان[34]، ومن ثمة نسبته الورثيلاني، وهو من أسرة محمد شقران حاكم منطقة قنزات، فجمعت في أصوله الدين والدنيا، الدين عن طريق جده ووالده اللذان كانا من المرابطين، والدنيا لإنتسابه إلى أخواله الحكام المعروفين بأولاد أمقران[35].

ويذكر الورثيلاني عن أصل أسرته أنها تنتمي إلى شرفاء تفيلالت، وهي أسرة علي البكاي البجائي، ويثبت أن جده أحمد الشريف من ذرية علي البكاي بقوله: **"...الوالي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا إذ ثبت ذلك وهو الشريف الحسيني والذي سمعناه من أعالي أسلافنا أنه من شرفاء تفيلالت وأما مقره ومقر أوائله فمن بجاية وجدنا هذا نجل الشيخ سيدي علي البكاي..."** [36].

* ***نشأته الدينية والعلمية:*** تلقى الورثيلاني في صغره حفظ القرآن ومبادئ الفقه في المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده الذي كان متظلعا في التصوف والفقه، وهو ذو سمعة طيبة، ويُعرّف به الورثيلاني بقوله: "... الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه.."[37].

وقد أكّد الورثيلاني على مكانة جده العلمية، والذي وصل إلى غاية مصر ودرس بالأزهر، ويثبت ذلك بقوله: "... الشيخ محمد وكان في

عصره يسمى مالكا الصغير (نعم) سمعت أنه كان يتعلم على جدي أول أمره بإذن الشيخ عبد الباقي والده..."[38]

وتردّد على الزوايا ومعاهد العلم بناحية القرقور وجهات جرجرة ودلس والجزائر[39]، وانكبّ على دراسة العلوم الشرعية، فأصبح متظلعا فيها مثل أبيه محمد السعيد وجدّه الحسين بن محمد الشريف، ولم يكتف بدراسته للعلوم الشرعية والفقهية فحسب، بل اهتم بطلب العلوم الأخرى، فدَرس اللغة العربية وتبحّر في آدابها ونحوها، وفي التصوف والتوحيد والتأليف[40]، أما التاريخ فقد أكّد على مكانته وعلاقته بالعلوم الأخرى.

اكتسب الورثيلاني مكانة روحية واحتراما في منطقته، وأصبح شيخ زاوية الأسرة ومدرّسا تخرّج على يده عدد كبير من الطلاب، ولم يكتف بالتدريس في هذه الزاوية، بل كان يتوجه كل سنة إلى بجاية في الشهر الكريم للتدريس والقيام بالوعظ مرابطا بها[41]، وقد ارتبط بالطريقة الشاذلية، وغلبت عليه الروح الصوفية، ومع ذلك فقد جمع بين علم الظاهر والباطن[42].

وأدى الورثيلاني فريضة الحج ثلاث مرات[43]، كانت الأولى عام (1153هـ/1740م) والثانية عام (1166هـ/1752م)، أما الثالثة فكانت عام (1179هـ/1765م). أما عن هذه الرحلات التي جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فقد أثمرت حصيلة ثقافية وعلمية أتاحت له فرصة أن يعرف ويتعرف على عدد كبير من علماء الأقطار العربية،

فارتفعت مكانته، وذاع صيته ليس في بيئته فحسب بل في المغرب والمشرق، وفي هذا الصدّد يقول الحفناوي في التعريف به: "هو الإمام العالم العامل العلامة الكامل الأستاذ الهُمام، شيخ مشايخ الإسلام، الورع الزاهد الصالح العابد، المتّبع لأثر الرسول عليه السلام والصلاة، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق، وكنز الدقائق، مفيد الطالبين ومربي السالكين، وقدرة العلماء العاملين..."[44].

وخلّف الورثيلاني مجموعة من المؤلفات في الفقه وفي أصول الذِّكر على الطريقة الصوفية الشاذلية، وأعمالا شعرية تتمثل في قصائد مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وأضخم عمل تاريخي في كتاب رحلته، ونستعرض فيما يلي أهم أعماله[45]:

شرحه للمنظومة القدسية في التصوف وهي أورجوزة الشيخ عبد الرحمان الأخضري، شرحه العقيدة الوسطى في التوحيد للإمام أبوعبد الله محمد بن يوسف السنوسي، حاشية على حاشية السكتاني التي وضعها على شرح العقيدة للسنوسي، شرح محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، شرح على كتاب "الصلاة" لمؤلفه الشيخ السمان القرشي، شرح لوظيفة يحي العبدلي، "وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه" لأبي الحسن الشاذلي، و" نسجت برنساً من ماء" لأحمد بن يوسف المليانى، وكتابه "المرادين" وهو في الأذكار والأوراد.

* ***كتاب الرحلة:*** تُعتبر رحلة الحسين الورثيلاني من أهم رحلات القرن الثامن عشر، فقد جمع صاحبها بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافية وتدوين التاريخ، فكان له الفضل في التعريف بجزء كبير من

العالم الإسلامي، حيث اشتملت رحلته على معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والاهتمامات العامة. وكانت غايته من تأليفه أن يجعله عملا مميزا يفتخر به ويتركه شاهدا للتاريخ، وأطلق عليه عنوانا يُبرز مضمونه ويشمل محتواه وهو "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ويضم كتاب الرحلة أكثر من ثمان مائة صفحة من الحجم الكبير، قام محمد بن شنب بطبعه ونشره دون شرح أو تعليق، معتمدا على ثلاث مخطوطات ونسخة مطبوعة بتونس[46]، وقد وضع المحقق مقدمة وترجمة لصاحب الرحلة، وقائمة من الفهارس للأعلام والأماكن والقبائل والأعراش، وتم طبعها في مطبعة بيير فونتانا الشرقية عام 1908م بمدينة الجزائر.

وتعتبر الرحلة الورثيلانية من أهم المصادر التي عرفها التراث الجزائري في الفترة العثمانية في القرن الثامن عشر، فقد دوّن صاحبها كل ما عاشه وشاهده في أسفاره الثلاثة، ليترك عملا تاريخيا في غاية الأهمية، لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لجزء كبير من البلاد الإسلامية، ولعلّ ما امتازت به الرحلة، الجهد الكبير الذي بذله مؤلفها في سرد كمٍّ هائل من المعلومات في شتى علوم ومواضيع العصر، فقد تحدث عن الفقه والتفسير والنحو والتصوف، وذكر من الغرائب والطرائف، وكرامات الأولياء وأصحاب الطرق، وتطرق إلى قضايا الجدل في عصره، كقضية شرب القهوة والدخان وحكم الشرع فيهما.

لكن أهم ما يميز الرحلة هو الوصف الجغرافي للمناطق، والجانب الإخباري التاريخي الذي عزم صاحبها الكتابة فيه، مُقرا ذلك بقوله: "... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادئ ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة..."[47]، فقد أسهب الورثيلاني كثيرا في الحديث عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، وقدّم لنا مسحا جغرافيا عن كل الأماكن والمسالك التي مرّ بها، وتطرق إلى موضوع التراجم وأهميته، وقلة الكتابة فيه عند أهل بلاده، فعمد إلى الترجمة لعدد هائل من الفقهاء والأولياء.

ويندرج كتاب نزهة الأنظار ضمن أدب الرّحلة، وقد انتهج الحسين الورثيلاني النهج المعتاد، فبدأ بذكر العزم على السفر والاستعداد النفسي، بعد رؤيته للنبي عليه الصلاة والسلام في منامه، فتشوق لزيارة مدينته. ثم عرض مرحلة التجول عبر أهم الأضرحة والزوايا بالجزائر للتبرك بها، وانتقل إلى مرحلة التوديع التي ذكر فيها رفاقه في الرحلة، وكيفية توديع الأهل والأقارب في يوم انطلاق الموكب، ثم سير الرحلة صوب المشرق، ويصعب تحديد مسار الرحلة بشكل مباشر للوهلة الأولى، لأن الكاتب أَكثَر من تكرار المعلومات، إلى جانب تداخل المواضيع، زيادة على ذلك اقتباساته الكثيرة من المصادر المتعددة، ومع هذا يمكن تقسيم الرحلة إلى أربعة أطوار حسب تنقلاته ومساره الجغرافي:

الطور الأول: رحلاته الداخلية:- جولاته وزياراته للأولياء والأضرحة والزوايا والمدن داخل الحدود الجزائرية.

الطور الثاني: مساره في بلاد المغرب

- انتقاله إلى تونس.
- عبوره لمدن طرابلس.

الطور الثالث: مساره في بلاد المشرق

- رحلته في مصر.
- تنقلاته في بلاد الحجاز وأدائه لفريضة الحج.

الطور الرابع: طريق العودة

- يشمل مساره للعودة من الحجاز، مصر، طرابلس، تونس، دخوله إلى الجزائر، إلى غاية وصوله إلى بلدته الصغيرة بني ورثيلان.

أما عن المصادر التي اعتمد عليها الورثيلاني في كتابه "نزهة الأنظار" فكانت متنوعة بين كتب التاريخ والفقه والرحلات، التي نقل منها الكثير من المعلومات، تارة ينسبها لنفسه وتارة أخرى لأصحابها.

3) الرحالة أبو راس الناصر (1150-1238هـ/1737-1823م):

أبو راس الناصر واحد من أعلام القرن الثامن عشر، ذاع صيته في المغرب والمشرق، ويُعدّ من أنشط كتاب المغرب في ذلك الوقت وأغزرهم إنتاجا، وهو من العلماء الجزائريين الذين أكثروا من الترحال والكتابة، إذ يبلغ مجموع تصانيفه حوالي مئة وسبعة وثلاثين مصنفا في مختلف العلوم. واسمه الكامل هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن

محمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن الجليل الراشيدي، من قبيلة المعسكري، ولد بناحية حبل كرسوط عام (1150هـ/1737م)[48]، مرّت عليه في صباه حياة قاسية، ذاق فيها مرارة الجوع وألم اليتم، انتقل به أبوه إلى حوز متيجة قرب مدينة الجزائر، وهناك ماتت أمه التي يقول عنها: **"...كانت من أجمل النساء البدويات وكانت يضرب بها المثل في السخاء والصلاح كرابعة العدوية... وهي آمة الله زولة بنت الفرح ابن الشيخ..."** [49]. وبعد موتها عاش مع والده في حوز مجاجة، حيث كان الوالد يعلم القرآن للصبيان، ويذكر أبوراس أن أبيه تزوج هناك بعدة نساء، إلى أن مات ودفن بمكان يعرف بأم الدروع[50].

* ***نشأته العلمية:*** أصبح محمد أبو راس يتيم الأم والأب، فكفله أخوه الأكبر عبد القادر، وتوجّه إلى المغرب حيث حفظ القرآن وأحكامه على صغر سنه، ثم عاد إلى معسكر، وقبل لقائه بالشيخ المشرفي، كان قد أتقن حفظ القرآن، ومختصر الخليل على أيادي نخبة من علماء ومشايخ مازونة، بعدها لازم وخدم شيخه عبد القادر المشرفي مدة[51]، ثم انتقل إلى الريف حيث تزوج واشتغل بالتعليم وتولى القضاء مدة سنتين، بعدها عاد إلى معسكر وتصدى للتدريس والإفتاء ما يزيد عن ستة وثلاثين سنة، واشتهر بين الناس بسعة اطلاعه، وكان مجلسه العلمي كبيرا حتى بلغ حوالي سبع مئة وثمانين طالبا، وقد رشّحه شيخه عبد القادر ليكون خليفته في التدريس[52].

اكتسب أبو راس ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتصاله بالعلماء، فكان كثير الحركة والسفر، حيث انتقل إلى العديد من الأقطار

الإسلامية، وتعرّف على أوضاعها واتصل بعلمائها، فزار مدينة الجزائر عدة مرات، وتوجه إلى مدينتي فاس وتطوان بالمغرب الأقصى والحجاز، وقد أدى فريضة الحج مرتين، الأولى عام(1226هـ/1810م) والثانية عام (1238هـ/1822م)[53].

توفي أبو راس رحمه الله تعالى عام (1240هـ/1823م) وقد تجاوز التسعين، ويذكره صاحب كتاب دليل الحيران ذلك بقوله: **"... وفي وقته مات محدث القرن الثالث عشر وصاحب التآليف العديدة والتصانيف المديدة. الشريف الأمجد العلامة الفرد الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الجليل الراشيدي المعسكري، والذي ليس له نظير ولا مثيل، يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة 1238 من الهجرة من له العز والشرف وصلى عليه العلاّمة الأسد الهايج فريد وقته السيد أحمد الدايج، ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر، فنسبت له العقبة وبها اشتهر، وعلى ضريحه قبة، نفعنا الله به وأورثنا منه محبة وقربة."**[54].

وأسهم أبو راس الناصر مساهمة عظيمة بتآليف كثيرة ومتنوعة، فقد كتب عن أحداث العالم الإسلامي كظهور الحركة الوهابية بالجزيرة العربية، والحملة الفرنسية على مصر والشام، وتولي محمد علي على أهل مصر، وإصلاحات الدولة العثمانية، أما عن القطر المغربي، فكان معاصرا لأحداث فتح وهران الثاني، كما انشدّ للباي محمد الكبير، وتحدث عن تمرد درقاوة بالغرب الجزائري، وخصّص جزءًا من كتاباته للحديث عن المغرب الأقصى وتونس، وبذلك أعطى صورة واضحة عن أهم أحداث

القرن الثامن عشر السياسية والثقافية، فيعتبر من أهم المصادر التاريخية الشاهدة للأحداث التاريخية المذكورة.

أما عن رزنامة مؤلفات أبي راس[55] فنختصرها في ما يلي:

1) مؤلفاته في القرآن:

- مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير.
- تقييد على الخراز والدرر اللوامع والطراز.

2) مؤلفاته في الحديث:

- الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات.
- مفاتيح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها.
- السيف المنتضى فيما رويت بأسانيد الشيخ مرتضى.

3) مؤلفاته في الفقه:

- درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخراشي.
- الأحكام الجوازل في نُبذٍ من النوازل.
- نظم عجيب في فروع قليل نصها مع كثرة الوقوع.
- الكواكب الذري في الرد بالجدري.
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون.
- النبذة المُنيفة في ترتيب فقه أبي حنيفة.
- المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك.

4) مؤلفاته في النحو:

- الدرة اليتيمة.

- النكت الوافية بشرح المكودي على الألفية.
- عمدة الزهاد في إعراب كل شيء وجئت بلا زاد.
- نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة.

5) مؤلفاته في المذاهب الفقهية:

- رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.
- تشنيف الأسماع في مسائل الإجماع.
- جزيل المواهب في اختلاف الأربعة المذاهب.
- قاصي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد.

6) التوحيد والتصوف:

- فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله.
- الحاوي النبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى.
- كفاية المعتقد ونكاية المنتقد.
- شرح الجمان للشيخ عبد الرحمان.
- التشوف إلى مذهب التصوف.

7) في اللغة:

- ضياء القابوس على كتاب القاموس.
- ضابط.
- رفيع الأثمان في لغة الولا ثم الثمان.

8) في البيان:

- نيل الأماني على مختصر سعد الدين التفتزاني.

9) في المنطق:

- القول المسلم في شرح السلم.

10) في الأصول:

- شرح المحلي.

11) مؤلفاته في التاريخ:

- زهرة التماريخ في علم التاريخ.
- المنى واللمى والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول.
- در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.
- در الشقاوة في حروب درقاوة.
- المعالم الدالة على الفرق الضالة.
- الوسائل إلى معرفة القبائل.
- الحلل السندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية.
- القصص المعرب عن الخبر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب.
- غريب الأخبار عمّا كان بوهران والأندلس مع الكفار.
- روضة السلوان المؤلفة بمرسى تيطوان.
- نباهة الغمر من أبناء العمر بأبناء ملوك ورؤساء، ومن أحسن منهم ومن أساء.
- الزهرة الوردية في الملوك السعدية.
- مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب.

أما في الأدب والشعر فله قائمة طويلة نكتفي منها بذكر:

- الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية.
- الرياض المرضية في شرح القوتية.
- لب أخباري في عدة أشياخي.
- حلتي ونحلتي في تعدد رحلتي.

*** كتاب الرحلة:** يُعتبر كتاب رحلة "فتح الإله ومِنّته في التّحدث بفضل ربّي ونِعمته" من أهم ما كتب أبو راس، حيث يقدم لنا حياته بقلمه، ويسلط الضوء على بيئته الثقافية، ولحسن الحظ توجد الرحلة كاملة، حيث أقدم محمد بن عبد الكريم على تحقيقها اعتمادا على ثلاثة نسخ[56]:

1- مخطوط الرحلة للشيخ عبد الحي الكتاني المتواجدة في الخزانة العامة بالرباط.
2- مخطوط الرحلة للشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي.
3- مخطوط الرحلة للشيخ أحمد جلول البدوي.

وكتب أبو راس الناصر رحلته في أواخر حياته عام (1233هـ/1818م) وعلى الرغم من أن الرحلة صيغت بالأسلوب الذي عرف به المتصوفة وهو أسلوب التحدث بنعمة الخالق علا وجلا، وبالتحدث عن النفس والعواطف الوجدانية إلا أنه انتهج منهجا دقيقا، فقسم كتاب الرحلة إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: تكلم فيه عن نشأته وسبب اختياره لعنوان الرحلة، مُقتديا بالفقيه عبد الرحمن السيوطي، وسمّاه: **"ابتداء أمري"**.

الباب الثاني: تحدّث فيه عن أساتذته وشيوخه، وأطلق عليه اسم **"في ذكر أشياخي النافضين عن قشب أوساخي، شريفة، وحقيقة، وقرآنا وطريقة"**.

الباب الثالث: ذكر فيه رحلته ولقاءاته بعلماء المغرب والمشرق، وعنوانه: **"في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"**.

الباب الرابع: أورد فيه كل المسائل التي دارت بينه وبين علماء عصره، وأطلق عليه عنوان: **"في الأسئلة وما يتعلق بها"**.

الباب الخامس: عدّد فيه كل مؤلفاته وسماه: **"العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط وجيز**.

4-الرحلات الحجازية المبتورة:

تفرض الأمانة العلمية أن نُنوّه بفضل كوكبة من الرحلات التي أثرت الرصيد الجزائري في العهد العثماني، ولكن لسوء الحظ لم يحتفظ لنا التاريخ إلا بجزء منها، والجزء الآخر مفقود تماما، تمّ التعرف عليها من خلال أسماء ذكرتها المصادر، ويعود السبب في هذا الضياع إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المضطربة التي مرت بها البلاد خلال الفترة الأخيرة من العهد العثماني، دخول الإستعمار الفرنسي الذي عمل على سحق وتضييع أهم المخطوطات والوثائق التاريخية الجزائرية.

أ-الرحالة ابن حمادوش: هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد، المعروف بابن حمادوش، من مواليد مدينة الجزائر سنة (1107هـ/1695م)[57]، من أسرة ميسورة الحال تمتهن الدباغة، حيث تعود

أول إشارة إلى ممارستها لهذه المهنة إلى عام 1694م، وعرف والده بالحاج محمد الدباغ[58].

أما عن تكوينه العلمي، فقد درس في وطنه العلوم الشرعية واللغوية، وأخذ العلم عن طريق القراءة والإجازة، ولكن ابن حمادوش ينفرد عن معاصريه بالتخصص العلمي، فهو صيدلي وطبيب وحسابي وفلكي وصاحب منطق، ومع ذلك لم ينقطع عن تيار عصره، فكان من المهتمين بالفقه والتصوف والتاريخ وحب السفر والتجول، فمنذ العشرينات من عمره أخذ يجوب العالم الإسلامي، فأدى فريضة الحج عام 1125هـ/1713م وتوجه إلى المغرب الأقصى، وبذلك استزاد بزاد العلم من أهم الأقطاب العلمية في القطر الإسلامي. وكان آخر تاريخ نعرفه عن تحركاته هو سنة 1161هـ/1748م، حيث كان بمدينة رشيد[59] أين ألف رسالته "تعديل المزاج"، والغالب على الظن أنه قد غادر الجزائر للحجة الثانية في هذه السنة، أما عن تاريخ وفاته فيرجحه الدكتور أبو قاسم سعد الله مابين 1197هـ/1783 و1200هـ/1786م بالمشرق[60].

وألف ابن حمادوش في شتى العلوم، وانفرد عن معاصريه باهتمامه بالطب والفلك، فألف كتابا يعتبر تحفة عصره، واعتمد في كتابته على مصادر المسلمين وغيرهم في تخصص الطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم، وله كتاب أسماه "الجوهر المكنون من بحر القانون"، وكتاب آخر بعنوان "تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج" وللإشارة فإن ابن حمادوش له قائمة طويلة من تآليف في شتى العلوم، لا نستطيع حصرها في هذه العجالة[61].

كتاب الرحلة: قام ابن حمادوش بتأليف رحلة -على الأرجح أنها ضخمة لولا فقدان الجزء الأكبر منها- وقد أطلق عليها عنوانا موحيا لمضمونها الدقيق وهو: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" وهي تتألف من ثلاثة أجزاء تم العثور على الجزء الثاني منها فقط، والذي قام بتحقيقه أستاذنا أبو القاسم سعد الله، ويقدم هذا الجزء أخبار ابن حمادوش وهو بالمغرب الأقصى وحين عودته إلى الجزائر[62]، أما الجزء الأول فأكد المؤلف أنه قد انتهى منه، حين يقول: **"وفي يوم الخميس، ثالث وعشرين رمضان، موافق ثامن عشر أكتوبر تممت الجزء الأول من هذا التأليف"**[63]، أما أخباره في المشرق فيكون قد دوّنها في الجزء الثالث من الرحلة.

ويُعتبر هذا الجزء من الرحلة ذا قيمة علمية هامة، حيث تعددت موضوعات نص الرحلة، مما جعلها تحمل كمّا هائلا من المعلومات السياسية والفكرية والاجتماعية عن عصر المؤلف، وهي تضم وثائق تاريخية في الميدان الأدبي والديني[64]. وفي الحقيقة فإنّ محقق الرحلة قدم خدمة جليلة لباحث التاريخ، ففي القسم الأول من كتاب الرحلة قدم ترجمة للمؤلف، ووصفا دقيقا لنص الرحلة وقيمتها العلمية، مما سهل عملية استخلاص المعلومات منها.

ب-الرحالة أحمد بن عمار (1119-1205هـ/1707-1797م):

هو أبو العباس أحمد بن عمار الجزائري، يُرجّح أن مولده كان سنة (1119هـ/1707م)[65] بمدينة الجزائر، وهو من الأُسَر العريقة التي توارثت منصب الإفتاء[66]، تلقى تربية دينية على يد والده الذي كان من

أهل العلم ومعروفا في الأوساط العلمية، فقد أشار إليه الشاعر المغربي أحمد الغزال وهو يمدح أحمد بن عمار بقوله:

"بِوَالِدِه دِينًا وعِلْمًا قَد اقْتَدَى لَقَدْ جَلَّ نَجْلٌ كَانَ بِالأَبِ يَقْتَدِي"[67]

تربى ابن عمار في كنف مدينة الجزائر في المرحلة الأولى من حياته[68]، إلى أن أصبح مدرّسا بالجامع الكبير، تولى وظيفة الفتوى على المذهب المالكي من سنة 1180هـ/ 1766م إلى غاية سنة 1184هـ/ 1770م[69]، ورغم هذه المكانة العلمية والاجتماعية، فإن هذا العالم بقي مجهولا لا نعرف عنه إلا الشيء القليل المقتطف من مختلف المصادر. وعاصرأحمد بن عمار كوكبة من الأدباء والفقهاء الّذين شهدوا له بالنبوغ والدراية في شتى العلوم كالفقه والتفسير ونظم الشعر، ومن أهمهم: محمد بن ميمون، وعبد الرزاق بن حمادوش، الرحالة الورثيلاني، وأبو راس، وسوف يتم التعرض إلى علاقة أحمد بن عمار العلمية بأبي راس وابن حمادوش والورثيلاني في الفصل الثاني من المذكرة.

كما اشتهر أحمد بن عمار بنظم القصائد والموشحات في مدح النبي عليه ألف صلاة وسلم التي كانت تُقرأ بالأصوات المطربة في المحافل العظيمة والمجامع المحفوفة بالفضلاء احتفالا بمولد النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أثبت ابن عمار أن له ديوانا شعريا في التوشيح، أورد فيه أيضا مقاطع نظمية للشيخ أبي العباس سيدي أحمد المانجلاني، والبوصيري[70].

ويُعد ابن عمار من محبي التنقل والترحال، فقد قصد المشرق مرتين على الأقل، الأولى عام 1166هـ/1753م، حيث مكث بجوار الحرمين حوالي اثني عشر سنة، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1178هـ/1763م أما رحلته الثانية فكانت بعد سنة 1195هـ/1781م وهي السنة التي قصد فيها تونس بنيّة الاستيطان، لكن لم يحالفه الحظ بها، خصوصا بعد الظروف السياسية التي مرّت بها الإيالة التونسية في تلك الفترة، فتابع رحلته إلى المشرق، وأغلب الظن أنه بقي بالحجاز من ذلك الوقت إلى وفاته[71].

أما عن أعماله، فلابن عمار مساهمة عظيمة في التأليف، فكتب في شتى المواضيع، وخالف معاصريه فيما عُرفوا به من تقليد في كتابة الحواشي والشروح[72]، وللأسف فإن أغلب أعماله تعتبر في حكم المفقود إلا القليل منها، ككتاب "لواء النصر في فضلاء العصر" ويشمل موضوع التراجم، و"ديوان الشعر" في المدائح النبوية، وذكر أبو راس أن لابن عمار رسالة في التغيير، كما ذكر له حاشية على الخفاجي في شرح الشفاء للقاضي عياض، أما الأستاذ أبو القاسم سعد الله فأشار لبعض التآليف لابن عمار التي اطلع عليها، منها[73]:

- تاريخ الباي علي باشا بن حسن (تونس).
- رسالة في مسألة الوقف.
- ثبته المسمى "مقاليد الأسانيد".
- شرح على البخاري.
- إجازاته وتقريظه.

*** *كتاب الرحلة:*** إن أهم ما ألف ابن عمار، الرحلة الضخمة التي أطلق عليها عنوانا مشوقا يدل على أهمية محتواها وهي "**نِحلة اللّبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**"، وقد عُرف عند معاصريه بها، حتى اشتهر في وقته بصاحب الرحلة[74]، وتقع هذه الأخيرة في ثلاثة أجزاء حسب ترتيب صاحبها، حيث يقول: "**... ورتبتها على مقدمة خاتمة، وغرض مقصود وخاتمة؛ فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم وتقدم على الارتحال، وأما الغرض المقصود ففي ما يحدثه السفر إلى الإياب وحط الرحال، وأما الخاتمة ففي ما نشأ عن ذلك بعد السكون وانظم إليه...**"[75]. ومع الأسف لا نتوفر إلا على الجزء الأول منها ويمثل المقدمة التي تشمل 245 صفحة مبتورة النهاية، تم طبعها بمطبعة بيير فونتانا سنة 1902م، وتتوفر المكتبة الوطنية على نسخة منها. أما عن محتواها، فسلك ابن عمار فيها منهج كتابة الرحلة، فبدأ بدواعي السفر والعزم فيه وأهميته في نفسه وعند المسلمين لتحصيل الثواب والغفران، فيستشهد بالحديث: "**...من زار قبري بالمدينة حلت له شفاعتي يوم القيامة...**"[76]، وتعتبر هذه المقدمة لوحة أدبية لما احتوته من نوادر شعرية وموشحات في المدح والشوق للنبي عليه الصلاة والسلام، كما أورد ابن عمار مقاطع من تآليفه وأخرى لمعاصريه وممن سبقوه في هذا النوع من الشعر.

كما أفادنا ابن عمار في هذه المقدمة بالتطرق إلى بعض التقاليد الاجتماعية عند أهل مدينة الجزائر في الاحتفال بالمولد النبوي، وذكر بعض العلماء وأعمالهم، خصوصا الشعرية، والتي كانت تقدم بهذه المناسبة، وفيما يخص الجزء الثاني الذي سماه "الغرض المقصود"، فهو يحتوي

بدون شك على تنقلاته ومسار رحلته من مدينة الجزائر إلى الحجاز، والمؤكد أن الجزء الأخير وهو الخاتمة يشمل أخباره وتحليله لكل ما شاهده وعرفه في رحلته، ولكن مع الأسف فإن هذين الجزئين لا يزالان مفقودين[77].

وإذا لم يصلنا من الرحلات السابقة إلا جزء يسير منها، فإن رحلات عدد كبير من علماء الجزائر قد ضاعت، ولم نتعرف عليها إلا من خلال بعض المصادر، ونذكر من هذه الرحلات: الرحلة الموسومة بـ "**الروضة الشهية للرحلة الحجازية**" لصاحبها "أحمد بن قاسم بن محمد بن إبراهيم ساسي البوني"[78] التي ولد بها عام 1063هـ/1653م، وهو من أسرة مرابطية تتمتع بمكانه روحية لدى أهالي عنابة، فعرف عن جده محمد ساسي تدخلاته العديدة لحل المشاكل بين الأهالي والسلطة[79]، و تربى أحمد البوني وسط جو يغلب عليه التصوف والفقه، وكان تأثيره واضحا في تآليفه الكثيرة التي جمعت بينهما.

وأدى أحمد البوني فريضة الحج التي أتاحت له الفرصة لتدوين أحداث سفره الذي انطلق من مدينة بونة مرورا بتونس ومصر إلى أن وصل إلى الحجاز، ثم عودته عبر المسارنفسه، ومن المؤكد أن هذه الرحلة التي نصح صاحبها الناس بقراءتها بقوله: "فعليك به فإن فيه طرفا وظرفا"[80] قد حوت أحداثا هامة، واشتملت على عدة مواضيع، فمن المعلومات العلمية التي دوّنها ابنه أحمد زروق نقلا عن لسان أبيه "...ولي أشياخ عدة ينيف عددهم عن العشرين، وإن يسّر الله تعالى عرّفت بهم، وقد ذكرتهم في تأليفينا بالروضة الشهية في الرحلة الحجازية..."[81].

ونستخلص من هذا الكلام أن الرحلة تزخر بكمّ هائل من الأخبار العلمية، فقد عدد أحمد البوني الشيوخ الذين عرفهم والتقى بهم في رحلته وخصهم بترجمة، ومؤكد أنه ذكر ثمرة لقائه بهم من الإجازات، والمناظرات، والأسئلة العلمية، وغيرها من الأمور التي تمت بينه وبين أقرانه العلماء من بلده ومن الأقطار الإسلامية الأخرى، والمؤسف أن هذه الجوهرة مازالت في حكم المفقود.

توفي البوني سنة (1139هـ/1726م) تاركا وراءه خزينة من الأعمال شهدت له بالعلم والصلاح، وأورث أبناءه العلم، ومن أهمهم ابنه العالم أحمد الزروق، أما عن رزنامة أعماله فهي[82]:

- كتاب التعريف بما للفقير من التواليف.

- نظم الخصائص النبوية.

- إظهار نفائس ادخاري المهيآت لختم كتاب البخاري.

- تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة.

- نفح الروانيد بذكر بعض المهم من الأسانيد.

- الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، وهي المعروفة بالألفية الصغرى.

الخاتمة:

وخلاصة القول أن هذا التراث الجزائري، له دورٌ كبيرٌ في الكشف الثقافي والحضاري للأقاليم والشعوب المغاربية في فترة القرون الحديثة، وكان مرآة عاكسة لتفاعل الثقافي بين بلدان المغرب، وتستحق تفحصًا جادًا ومُركّزا، للاستفادة من معطياتها العلمية.

7. الهوامش:

1 مقرة: بقاف مسكنة وراء مفتوحة مدينة في المغرب في البر البربر قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ، ويذكر المقّري: "هي مقرة من قرب الزاب إفريقيا". انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج4، المطبعة المصرية القاهرة، 1906م، ص606؛ أحمد المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج7، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ص: 1030.

[2] ناصر الدين سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنلن، 1998م، ص: 327.

[3] المقري، **نفح الطيب**، ج1، ص: 5.

[4] هو الفقيه الإمام العلامة أبو عثمان سيدي سعيد بن أحمد المقري، ولد بعد الثلاثين وتسع مئة 930هـ وتوفي عام 1010هـ، أقام بتلمسان مفتيا بها 6 سنوات، أخذ عن شيوخ فاس كابن الونشريسي وغيرهم، وأخذ عنه جماعة كأحمد بن قاضي وسعيد قدورة وابن أخيه أبو العباس المقري، انظر: أبو القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج1، دار موفم للنشر، الجزائر، 1991م، ص، ص: 26-44.

[5] **نفسه**، ص: 52.

[6] عائلة الآسي من أكبر العائلات العلمية في مراكش ويذكر أحمد المقري ترجمة لبعض أفرادها من بينهم إبراهيم وإخوته فيقول: "...أما أخوه القائد الأسمى المعظم الأجل الرئيس السري، الألمعي أبو إسحاق إبراهيم فقد تقدم الإلمام به عند ذكر مآثر أمير المؤمنين نصره الله، وإنما لم أفرده بترجمة لأني لم أقف له على نظم، وإلا فله مشاركة حسنة في العلوم، يستظهر مختصر الخليل والأصلين وغير ذلك..." للمزيد انظر: أحمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م، ص ص: 189- 190.

[7] أحمد بابا التنبكتي: هو أبو العباس أحمد الصنهاجي الماسي السوداني، المعروف ببابا التنبكتي، صاحب كتاب "نيل الابتهاج ذيل الديباج" وتكملته "كفاية المحتاج" التي قدم فيه ترجمة ويذكر سنة مولده 963هـ، ونشأته العلمية وشيوخه ومؤلفاته، كانت وفاته في السابع من شعبان سنة 1032هـ/1622. انظر: الحفناوي، **المصدر السابق**، ج1، ص ص: 14-25.

8 هوأبو العباس أحمد المنصور ابن السلطان أبي الله الشيخ المهدي السعدي، ولد بفاس سنة 956هـ/1549م، بويع للحكم بعد أخيه عبد المعتصم عند الفراغ من وقعة واد المخازن يوم الإثنين آخر جمادى الأولى 986هـ/ 4 أوت 1578م. وتعتبر فترة حكمه أزهى فترت الدولة السعدية توفي يوم الأحد 16 ربيع الأول 1012هـ/ 24 أوت 1603م. انظر: السلاوي أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج5، تحقيق

جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1955م، ص ص:89 وما بعدها.

[9] يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص ص: 167- 168.

[10] يقع جامع القرويين بمدينة فاس ويدعى الجامع الأعظم، وهو في غاية الكبر، يبلغ محيط دائرته نحو ميل ونصف ميل، وله واحد وثلاثون بابا كلها كبيرة وعالية، ويوجد خارج فاس على بعد ميل تقريبا، فلا يمكن الكلام عن فاس دون القصد إلى القرويين بالذات، فإن ذلك بمثابة الحديث عن كائن مجهول الهوية، ومن أجل ذلك كان الفضل في كل ما سمعناه عن فاس من مناقب ومحامد يرجع إلى هذا المركز الثقافي الإسلامي الذي أشع هذه الجهات، فقد شهد الجامع حلقات متسلسلة ضمّت مشاهير رجال الفكر في ندواته العلمية والأدبية، وقد كانت كل هذه الحركات تعبيرا صادقا عن تقدم العلم وازدهاره، فيمكن القول أن القرويين يعتبر جامعة، خصوصا وأنه ملحق بعدة مدارس تقام فيها مختلف برامج التعليم، ومن أهم هذه المدارس: مدرسة الحلفويين، ومدرسة العطارين، ومدرسة المصبحية، وهناك بعض المدارس الأخرى الملحقة على بعض فروع القرويين. انظر: الوزان، **المصدر السابق**، ج1، ص 224؛ عبد الهادي التازي، **في تاريخ المغرب جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) موسوعة لتاريخها المعماري والفكري**، مجلد2، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1973م، ص ص: 356-368.

[11] بوعزيز، **المرجع السابق**، ص: 168.

[12] عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، الرباط، 1977م، ص ص: 328-330.

[13] أحمد المقري، **رحلة إلى المشرق والمغرب**، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004م ص: 57.

[14] السلاوي، **المصدر السابق**، ج6، ص: 22.

[15] المقري، **نفح الطيب**، ص: 13.

[16] المقري، **الرحلة**، ص:8.

[17] المقري، **نفح الطيب**، ص ص: 8، 13، 33، 35.

[18] **نفسه**، ص ص: 33- 35.

[19] عبد الكريم الفكون، **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، ط1، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص: 224.

[20] بوعزيز، **المرجع السابق**، ص ص: 171-172.

[21] ابن الفكون، **المصدر السابق**، ص:224.

[22] المقري، **الرحلة**، ص: 98.

[23] كان للمقري نشاط واسع في الحجاز سواء في مكة أو في المدينة المنورة، فاشتغل في التدريس وتبادل الإجازات مع العديد من العلماء، وفي الرحلة نماذج من الإجازات والخطابات مع فقهاء المدينة ومكة. نذكر على سبيل المثال: إجازة المقري لخطيب الحرم (الفقيه أحمد تاج الدين بن إبراهيم المالكي المكي)؛ للمزيد انظر: المقري، **الرحلة**، ص: 91 وما بعدها.

[24] سعيدوني، **المرجع السابق**، ص:329.

[25] محمد أمين المحبي: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج1، دار صادرة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص: 305.

[26] كانت العلاقة بين المقري وأحمد شاهين علاقة متينة، وقد تبادل الرجلان الرسائل والإجازات التي وردت في عدة محطات من كتاب نفح الطيب والرحلة، ونستدل بنموذج وهو قصيدة أجاز بها المقري صديقه شاهين جاء فيها: **أَحْمَدُ مَنْ أَطَارَ فِي جَوِّ العُلَى * صِيتَ ابْنِ شَاهِينَ زَانَ الحُلَى**.انظر: المقري، **نفح الطيب**، ج2، ص ص 424، 426؛ المقري، **الرحلة**، ص: 167.

[27] سعيدوني، **المرجع السابق**، ص: 329.

[28] طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، الجزء الأول حققه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شبلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م؛ الجزء الثاني والجزء الثالث: نفس المحققين، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، دون تاريخ، الجزء الرابع تحقيق: سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويث، الجزء الخامس حققه: عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، لا يوجد مكان وتاريخ الطبع.

[29] أحمد المقري، **فتح المتعال في مدح النعال**، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006م.

[30] استعملنا الكتاب المتداول المحقق من طرف إحسان عباس في 8 أجزاء **السابق ذكره**.

[31] سعيدوني، **المرجع السابق**، ص ص: 30- 31.

[32] سعيدوني، **المرجع السابق**، ص:31.

[33] جورج ديلفان، مستشرق فرنسي، تخرج من جامعة باريس قسم اللغات الشرقية وانتدب للعمل في الجزائر سنة 1881م، ثم شغل منصب مدير بمدرسة وهران، اهتم بدراسة

التاريخ والأدب الشعبي الجزائري، له عدة مؤلفات أهمها تاريخ الباشاوات العثمانيين في الجزائر من سنة 1515 إلى سنة 1745م، توفي عام 1919م.

[34] بني ورثيلان: قرية تقع بين سطيف وبجاية.

[35] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري 16/ 20م)**، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص: 408.

[36] يذكر الورثيلاني أن جده أحمد الشريف كان له ولد اسمه يحي، وكان متبحّرا في العلم، وله خزانة عظيمة من الكتب، وكان صاحب زاوية، إلا أنه عند ذكر اسمه الكامل يغفل الورثيلاني عن هذا الجد، حيث يقول: "... العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف، نجل الشيخ الوالي سيدي علي البكاي البجائي..."، انظر: الورثيلاني، **نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار**، تحقيق محمد بن الشنب، مطبعة بيار فنتان الجزائر1908م، ص ص: 73.

[37] **نفسه**، ص: 308.

[38] **نفسه**، ص: 549.

[39] سعيدوني، **المرجع السابق**، ص: 418.

[40] Hadj-Sadok, **à travers la berbérie orientale du XVIII e, siècle, avec le voyageur Al-Warthilani**, in **R.A**, ,N°95, Année 1951, p: 315-399.

[41] يذكر الورثيلاني أنه منذ صغره كان يُرابط في مدينة بجاية حيث يقول: "... غير أنهم لما أكدوا علي ذهبت معهم إلى زيارتها لأني محب فيها غاية، وذلك قبل بلوغي، وكنت كل عام أصوم رمضان ناويا للرباط مع تعليمي الطلبة راجيا أن يكون لي حظا وافرا منهم ونصيب كامل عندهم..."، انظر: الورثيلاني، **المصدر السابق**، ص: 18.

[42] سعد الله، **المرجع السابق**، ص: 408.

[43] مختار بن طاهر الفيلالي، **رحلة الورثيلاني عرض ودراسة**، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1978م، ص: 50؛ سعد الله، **المرجع السابق**، ص: 409

[44] الحفناوي، **المصدر السابق**، ج1، ص ص: 397- 398.

[45] الورثيلاني، **المصدر السابق**، صفحة المقدمة (ج، د، هـ)، ص ص: 5، 10، 87، 108، 284، 529-530.

[46] تم نسخ الرحلة بمجرد انتهاء الورثيلاني من كتابتها على يد الناسخ سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي عام 1182هـ يوم الإثنين أول أيام رمضان، وعلى ما يبدو فإن نفس الناسخ قام بإعادة نسخ الرحلة في نفس السنة، لأن ابن شنب وجد تماثلا في التاريخ في آخر النسختين، أما النسخة الثالثة فهي مؤرخة بتاريخ (1313هـ /1895م)، أما نسخة تونس فهي عبارة عن طبعة حجرية صدرت عام (1321هـ /1903م)، قام بتصحيحها الشيخ علي شنوفي، والشيخ الأمين الجاريدي، في ثلاثة أجزاء، يتكون مجموعها من 724 صفحة، وضع لها الشيخ صالح بن مهنا القسنطيني حاشية؛ انظر: الورثيلاني، **المصدر السابق**، ص: 713؛ الفيلالي، **المرجع السابق**، ص ص: 51- 52.

[47] الورثيلاني، **المصدر السابق**، ص: 3.

[48] محمد أبو راس الناصر، **فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص: 11.

[49] أبو راس الناصر: **المصدر السابق**، ص: 18.

[50] **نفسه**، ص: 19.

[51] **نفسه**، ص: 71.

[52] سعد الله، **المرجع السابق**، ص: 392.

[53] محمد سي يوسف، "دراسة مخطوط عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لأبي راس الناصري"، **مجلة الدراسات التاريخية**، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد الثاني، 1986م، ص ص: 135- 136.

[54] محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق، المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص: 240.

[55] حول مؤلفاته انظر: أبوراس الناصر، **المصدر السابق**، ص: 179 وما بعدها؛

- Faure-Biguet, **Notice sur le chekh MOUHAMMED ABOU RAS EN NASIRI de mascara**, journal Asiatique, serie 09, T4, Année 1899, pp: 402- 418 .

[56] أبو راس الناصر، **المصدر السابق**، مقدمة المحقق، ص: 11.

[57] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **رحلة ابن حمادوش المسماة: "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"**، تحقيق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983م، ص: 9.

[58] للمزيد حول نشاط عائلة ابن حمادوش في الدباغة، انظر: عائشة غطاس، **الحرف والحرفيين بمدينة الجزائر، 1700-1830م، (مقاربة اجتماعية-اقتصادية)**، منشورات ANEP، الجزائر، 2007 م، ص: 116.

59 مدينة رشيد تقع على النيل في الضفة الآسيوية، بعيدة عن المصب بثلاثة أميال، أعيد بناؤها عام (255هـ-870م) في حقبة أحمد بن طولون والي مصر، وكان أبوه عبدا لأحد الخلفاء. للمزيد انظر: الوزان، **المصدر السابق**، ص: 197.

[60] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص: 425.

[61] حول مؤلفات ابن حمادوش، انظر: **نفسه**، ص ص: 430-431.

[62] ابن حمادوش، **المصدر السابق**، ص: 9.

[63] **نفسه**، ص: 124.

[64] ابن حمادوش، **المصدر السابق**، ص ص: 23- 24.

[65] أحمد بن عمار، **مختارات مجهولة من الشعر العربي**، تقديم وتعليق، أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992م، ص: 24.

[66] اختلفت المصادر في تحديد نسبه وأسماء أجداده، فيذكر صاحب منشور الهداية أن أحمد بن سيدي عمار بن داود كان خطيب الجامع الأعظم بالجزائر الذي زار قسنطينة، ويذكر ابن حمادوش أن محمد بن سيدي الهادي كان خال ابن عمار، ومنه يكون أصله من العائلات التليدة في مدينة الجزائر التي تنحدر من أصول أندلسية، ولكن الدكتور سعد الله يؤكد أن ثقافة ابن عمار جزائرية محضة ولا يوجد ما يوضح اتباعه لثقافة الأندلسية لا في مؤلفاته ولا ثقافته؛ للمزيد انظر: ابن الفكون، **المصدر السابق**، ص: 242؛ ابن حمادوش، **المصدر السابق**، ص: 260؛ سعد الله، **المرجع السابق**، ج2، ص ص: 225- 227.

[67] **نفسه** ص: 227.

[68] تعتبر المرحلة الأولى من حياة أحمد ابن عمار غامضة، ولم تذكر المصادر أي تفاصيل عنها. انظر: **نفسه**، ص: 224.

[69] الحفناوي، **المصدر السابق**، ج1، ص ص: 339- 340؛ عائشة غطاس وآخرون، **الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها**، منشورت المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وأول نوفمبر 1954م، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث 2007م، ص: 283.

[70] الحفناوي، **المصدر السابق**، ج1، ص: 342؛ نور الدين عبد القادر، **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي**، نشر كلية الأداب الجزائرية، الجزائر1965م، ص ص: 206- 207.

[71] الحفناوي، **المصدر السابق**، ج1، ص: 340؛ نور الدين عبد القادر، **المصدر السابق**، ص: 207؛ سعد الله، **المرجع السابق**، ج 2، ص: 229- 230.

[72] **نفسه**، ص: 230.

[73] اطلع عليها الدكتور أبو القاسم سعد الله في مخطوط عنوانه: **مباهج الأزهار ودوحة الأفكار**، المكتبة الوطنية، تونس رقم 260، ورقات 67- 69؛ أما الرسالة في "مسألة الوقف" فهي موجودة ضمن رسالة الرد على الوهابية لإسماعيل التميمي بتونس، وبخصوص "شرح على البخاري"، ذكره محمد بن شنب في مقاله الذي تقدم به لمؤتمر المستشرقين الرابع عشر، الجزائر، 1905م؛ وفيما يتعلق بالإجازات فقد نشر الدكتور سعد الله إجازة ابن عمار لمحمد خليل المرادي في **مجلة الثقافة**، عدد 45، 1978م، للمزيد حول أعمال ابن عمار الأدبية، راجع: سعد الله، **المرجع السابق**، ج2 ص ص: 230-231.

[74] أبوراس الناصر، **المصدر السابق**، ص: 92.

[75] أحمد بن عمار، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، مخطوط، المكتبة الوطنية، رقم 2757، ورقة 4.

[76] ابن عمار، **الرحلة**، ورقة3. فيما يخص الحديث المستشهد به، فهو حديث ضعيف لم يرِد في الصِّحاح.

[77] أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج1، الطبعة الخاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ص: 184.

78 نسبة إلى مدينة بونة أوعنابة: مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد نحو مائة وعشرين ميلا غربا، كانت تسمى قديما أوربونة، وهي مشهورة عند الكثير من الناس باسم بلد العناب لكثرته في ذلك المكان. للمزيد انظر: الوزان، **المصدر السابق**، ص، ص: 61- 62.

[79] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، ص: 61.

[80] أحمد الزروق، **تعليق على فتوى في الحضانة لأحمد البوني**، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 2160، الورقة 06.

[81] **نفسه**، نفس الورقة.

82 سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج2، ص:62-64.